منهجنا (٤)

الاستعداداتُ الحَثيثَة لِحِمَايَةِ الأرْبِطَةَ مِن مُزاحمةِ المَدْرَسَةِ الحَديثة

بقَلَم خادِمِ السَّلَف

أَبِي بَكر العَدَنِيّ بن عَلِيّ المَشْهُور

بعناية

فرع الدراسات وتحقيق التراث

الأربطة الإسلامية ومعاهدها التعليمية - عدن

بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ

المطلع القرآني..

{ الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فاخْشَوْهُمْ فزادَهُمْ إيماناً وقَالُوا حَسْبُنا اللهُ ونِعْمَ الوَكِيلُ. فانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ منَ اللهِ وفَضْلٍ لمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ واتَّبَعُوا رِضْوانَ اللهِ واللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ }

[آل عمران:١٧٣-١٧٤]

المُقَدِّمَة

الحمدُ للّهِ حمَداً كَثِيراً كما أمَر.. والصلاة والسلام على النبيِّ المصطفى الأنور.. صاحبِ الجبينِ الأزهر والمقامِ الأفخر.. سيِّدِنا محمدِ بنِ عبدِاللّهِ الطاهرِ المطهَّر.. وعلى آلِه وأصحابِه الغُرَر.. وعلى التابعين لهم بإحسانٍ إلى اليوم المنتظر .

وبعدُ فهذه رسالةٌ قصيرة.. أكْتُبُها لأولي البصائر المنيرة.. الحريصين على ميراث السلف وتَرِكَتِهِمُ الكبيرة.. تِلْكُمُ التَّرِكَةُ والميراثُ المُتَفَرِّدُ عِلماً وعَمَلاً وثمَرَةً عن كلِّ ما عرفته بلاد العالم من مدارس المعرفة والتطبيق بشهادة علماء العالم، وآثار هذه الشهادات لا تزال ناطقة.. وأنفاح أعطارها في الوجود عابقة.. ومَن لم يعرفْ منهجَ أولئك فماذا عساه أنْ يُقدِّم للإسلام في وطن الأئمة الأعلام ؟

والقصد من هذه الرسالة تبيين الحالة في واقع المعاصرة.. وقلة المناصرة.. ودعوة الأبناء والأحفاد المستجيبين لدعوة السلف المتقين أن يحافظوا على ما بقى من أنماط التربية الروحية الأبوية، وأن لا يساوموا في بيعها برخيصٍ.. هذه التربية المتمثلة فيما بقي بين

أيدينا اليوم من أربطة العلم وزواياه المرعية بنظر الشيوخ والعلماء من أتباع مدرسة السلف الصالح بحضرموت ، ممن لا ينطوون ولا ينضوون تحت إدارات رسمية ولا شبه رسمية، وَلاءُهُم للّه ولرسوله ولآل البيت النبوي، البيت الذي أمرنا أن نحبهم ونقتدي بهم ونقتفي آثارهم ظاهراً وباطنا .

هذه هي المدرسة الخيرِّة النيرِّة ، وهي لُبُّ العلم النافع وثمرة العمل الرائع.. وهي اللبنة الروحية الصحيحة في قلوب الناشئة والطلائع.. تحيي طالب العلم من موت العادة وترسي في قلبه وقالبه معاني الخشية للّه ومراقبته في السر والنجوى.. مع الورع والصدق والإخلاص والتقوى .

هذه عَلائِمُ مَدْرَسِيَّةِ سلَفِنا الصالح بحضرموت وبغيرها، وهي اليوم في أَمَسِّ الحاجة لِتَفَهُّمِ الأبناء والأحفاد المنتمين بالصلة والعرق والعلم والطريق إلى آبائهم ما تحتاجه من الاهتمام والنهوض وصدق الدفاع عنها ، وبحث همة الجميع لتحسين وترتيب أوضاعها دون تبديل ولا تحريف ، فلا إغلاق لأبواب الأربطة، بل يجب فتحها وتطويرها والأخذ بها، ولا إغلاق لزوايا العلم بل يجب الدفع بها والعناية برجالها وطلابها، فنحن

والزمان في مسيس الحاجة لهؤلاء ، والتجربة التعليمية في أوطاننا قد أثبتت لنا خلال مسيرة الخراب الماضية غربة الآداب وضياع السير وانقلاب المفاهيم ، مع نفرة عن الدين وأهله واستحسانات لقبائح الأعمال والآمال .

وما أنْ مَنَّ اللّهُ تعالى على الوطن المكدود بتغير الأحوال إلى الأحسن وزوال الكابوس الإلحادي حتى عاد دور الأربطة من جديد وتنفس الناس الصعداء وهم يشهدون النمط الأخلاقي المفقود، وهرع الناس من كل حَدَبٍ وصَوْبٍ يبعثون بأبنائهم إلى الأربطة الدينية يكرعون صافي الأخلاق وشريف الأذواق علماً وعملاً ومظهراً وجوهرا .

فهذا رباط مدينة البيضاء.. الرباط الذي عانى خلال المراحل السابقة من المضايقات والسعايات والوشايات ما لا مزيد عليه ؛ بَقِيَ مُشِعّاً بالسلوك والأخلاق والعلم، في حين أُغلقتْ رسمياً كافة الأربطة الباقية وحورب رجالها واستُفِزَّ أتباعُها حتى هيأ اللّه زوال مرحلة الامتحان والاختبار ، فبرز دَورُ رباط البيضاء جلياً في كل مكان، وهذا أمر واضحٌ لا يحتاج إلى بيان ولا برهان، وتلاه فتح الأربطة الأخرى بحضرموت والشحر ، ثم على نمطها فتحت أربطة أخرى في مناطق اليمن

ليس بحثا عن الشهادات الاعتبارية، وإنما بحثا عن الأدب الإسلامي والخُلُق النبوي المفقود عبر مرور السنوات.

إن المدرسة الحديثة من قاعدتها إلى قمتها تؤدي في الحياة الاجتماعية دَوراً محدوداً لا يرتقي إلى المستوى الإسلامي المنشود، وسبب ذلك أنها قائمة على بناء العقل وتسليحه بالعلوم الدينية والدنيوية نظريا فقط، وهي مهمة ضرورية في حد ذاتها، ولكنها في منهج الإسلام مفتقرة إلى المعادل الأخلاقي والتربوي، والمعادل الأخلاقي والتربوي الصحيح منعدمٌ تماماً في الهياكل التعليمية المعاصرة من قمتها إلى قاعدتها ؛ لأنها تؤدي غرضاً تابعاً للمؤسسات السياسية أو شبه السياسية التي تبني الأخلاق والتربية لمصالحها الفكرية والنظرية وتَلْوِي وَلاءاتِ الأجيالِ تَبَعاً لمناهجها المرسومة .

إن هذه المنهجية النظرية في مفهوم التربية الإسلامية نقائص تؤدي بالعالِمِ والمتعلم إلى استتباع المصالح وتجييش العلوم في مصلحة المؤسسات والإدارات والخدمات، وهكذا كانت في مراحل الحياة العلمية والعملية السابقة، ولا زالت شروط الاستتباع قائمة وكائنة في القواعد الهيكلية المعاصرة كلها . وهذا أمرٌ لا نرضاه أن يهيمن في أوطاننا ذات التاريخ التربوي

الإسلامي العريق، وخصوصا في عهد قد فُتحت لنا فيه أبواب البناء التربوي والتعليمي على مصراعيها .

إن استهتار العديد من مثقفينا اليوم بزوايانا العلمية وأربطتنا التربوية ومحاولة التقليل من شأنها أمرٌ يؤدي إلى القلق والحيرة، إذ إن الواقع يقتضي الاعتزاز بهذه المواطن ورعايتها رعايةً تعيد لها موقعها الذي فقدته في عصور الإغراب والاغتراب .

وأما مسألة التغييرُ ورفض الدَّور الفاعل لهذه المواطن، وتشجيعُ هياكل المدرسة الحديثة ، وبَدْءُ العملِ الدَّؤوب على ترسيخ مواقعها، واجتذاب المعلمين والمشايخ للتدريس فيها ؛ فالانفعالاتُ تُضيفُ إلى غربتنا الماضية غربةً في ثوبٍ عصريٍّ جديد .

وإذا ما كانت عِلَّةُ الرفضِ لدَور الأربطة والزوايا منحصرةً في بعض الإشكالات المحدودة فالمسألة إذن قريبةٌ جداً . إنَّ شكلية المنهج والشهادة والمستوى واعتراف الجهات الرسمية مسائلُ يمكن حلها وتجاوز إشكالها، وليست حجةً بذاتها لإيقاف دَور الأربطة أو الاستغناء عنها، إذ لا تمثل المدرسة الحديثة كلُّها بديلاً ملائماً في الجوانب التربوية والأخلاقية إذا هي ما قامت

بدور العلم والتعليم .

وإذا ما كانت المرحلة الحالية تفرض علينا أن نخرج إلى رحابة العلم ونستفيد من الدراسات العالية والبحوث الفقهية المقارنة، وننطلق إلى مستوى العالم وكلياته ؛ فإن المرحلة ذاتَها تفرض علينا أيضا معالجة الأمراض الأخلاقية الموروثة من المراحل السابقة ، وتفرض علينا نشر الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وتفرض علينا إعادة الشرف الوضيء لِمَن سَلَبَتْهُمْ مدارسُ الحداثة المتنوعة مواقعَ التأثيرِ التربوي والتعليمي.. ((أهل البيت النبوي)).. وهم المخصوصون في الأمة بعلمٍ يجب اقتفاؤه والاهتداء به، وهؤلاء المخصوصون ليسوا من تلامذة المدرسة الحديثة ولا من أعلامها، وربما لا تستسيغهم عناصر المدرسة الحديثة ولا تميل إليهم كلَّ الميل.. تركيباً.. لا طبعاً ولا أَرُومةً .

ولربما كان من أبنائهم وأحفادهم من صار بفعل التأثر الإعلامي في العصر داعيةً إلى الحداثة وعلمنة الدين، لكنه لا يسميها حداثةً ولا يليق أن يدعو إلى علمنة الدين، فهو ـ كما يرى ـ داعٍ إلى منـهـج السلف تحت مسمى العلم والتطور العلمي . والحقيقةُ المُرَّة ـ إنْ لم تستعذبها قلوبُ أهلها ـ أنَّ قَبولَ البدائلِ العصرية مكان المواطن الأبوية

عقوقٌ وظلمٌ وسفاهة . وكذلك يعتبر قبولنا للمواطن الأبوية دون مراعاةٍ لسير الزمان والمكان عقوقاً وانهزاميةً ، ولهذا وذاك كتبنا هذه الرسالة القصيرة لإبراز حاجتنا الملحة في زماننا إلى الحديث النافع والقديم الجامع ، ولا بديل عن منهج السلف وإن رضي الخلف بالدُّون.. اللّهم أرشدنا واجعلنا ممَّن نصر الحق ووالاه .

نُشُوءُ الأَرْبِطَة

كانت الأربطة في تاريخها القديم مكاناً للفقراء من أتباع المشايخ لإيوائهم وهي أيضا موقع لاجتماع العديد من الدائرين في فلك المتصوفة باليمن وحضرموت، ويبدوا أنها تحولت بفعل الحاجة في بعض البلاد إلى موقع التعليم وإيواء طلابه الدارسين على المشايخ في الزوايا والمساجد .

ومن خلال تتبعنا لتاريخ الأربطة في اليمن وجدنا أن أهل شمال اليمن قد اعتنَوا بها على نمطها التقليدي من قبل ، أما في جنوب اليمن فلعل أقدم الأربطة التي جمعت بين الإيواء والعلم رباط الفقيه المقدم المتوفى عام ٦٥٣ بتريم ، ورباط الشيخة سلطانة الزُّبيدية الكِندِية المتوفاة عام ٨٨٣ بحضرموت، ورباط باعشن بوادي دوعن، ورباط باعَزَب في وادي العوالق السفلى ، ورباط الشَّقّاع بروضة حبان ، ولكن هذه الأربطة على ما قدمته للعلم من حفظ وخدمات فقد ضعفت فيما بعد وتلاشت وبقيت في تلامذتها آثارها الفكرية .

وأقرب الأربطة عهداً بهذه المهمة العالية كان « رباط الخريبة » بوادي دوعن، وكان يشرف عليه الشيخ العلامة عبد اللّه بن أحمد باسودان، وكان هذا الرباط ملاصقاً للمسجد الجامع بالخريبة وفيه عددٌ من الغرف التي يسكنها

طلبة العلم، وتخرج منه العدد من الأكابر الذين جمعوا بين علمي الظاهر والباطن ونفع الله بهم الأمة .

ولما ظهرت في العالم الإسلامي والعربي دعوة التحديث ، وبدأت في إنشاء المدارس ذات المناهج المتنوعة كانت حضرموت تخشى من مزاحمة هذه المواقع وتأثيرها على نمط الزوايا وحلقات العلم في المساجد فبرزت فكرة اتخاذ الأربطة الدينية ذات المنهج الديني .

وكان أول الأربطة ظهورا هو رباط غيل باوزير الذي أسسه الشيخ محمد بن عمر بن يسلم المتوفى سنة ١٣٢١ ، ورباط سيئون الذي أنشأه الحبيب العلامة القدوة علي بن محمد الحبشي المتوفى عام ١٣٣٣ ، وقام هذا الرباط بدور الرافد الفكري المتجدد إلى جانب المسجد والزاوية، وأقبل عليه الطلبة وانتفع به الكثيرون محلياً وخارجياً ، ثم أنشئ بعده رباط تريم عام ١٣٠٤ ، وهو الرباط الذي حاز شهرةً عالميةً فيما بعد وخاصةً عندما كان يشرف عليه الحبيب العلامة عبد الله بن عمر الشاطري، وأدى رباط تريم دوراً جديداً في حضرموت إلى جانب الزوايا

العلمية[1] والحلقات التقليدية في المساجد ، واحتضن العشرات من الطلبة القادمين من شتى بقاع الأرض لطلب العلم.

وتفرد كلُّ المتخرجين من الأربطة بأنماطٍ علميةٍ وعمليةٍ واعتقاديةٍ خاصة، حيث أُتيح لهم من داخل أربطتهم الاتصال برجالات العلم والدعوة إلى الله والمشار إليهم بالصلاح والولاية، فقرؤوا عليهم واستمدوا منهم وحصلوا على الإجازات العالية والأسانيد الوثيقة .

ولا زالت البلاد العربية والإسلامية إلى اليوم تشهد من بقايا تلاميذ الأربطة دعاةً ورعاةً إذا رؤوا ذكر الله، ولأجل إنجاح هذه الفكرة لابد من طرح مقوماتها

---

(١) الزوايا العلمية ـ جمع زاوية ـ هي الأبنية التي أُسست لغرض تعليم العلوم الإسلامية، وخاصة علوم الفقه والحديث والتفسير واللغة ، ولا زال منها في حضرموت عددٌ يحمل اسماء مؤسسيها ، مثل زاوية الشيخ علي بن أبي بكر السكران بتريم ، وزاوية الشيخ سالم بافضل بتريم ، ولا زال دورهما العلميُّ مستمراً إلى اليوم .

ومسمى الزاوية عند أهل التصوف في بعض البلاد الإسلامية يعني موقع اجتماع الصوفية للذكر والحضرات ، وهي كثيرةٌ في عواصم اليمن ، أما في حضرموت فالزاوية لا تُتخذ للذكر والحضرة ، وإنما هي موقعٌ علميٌّ خاصٌّ لنشر العلم ، ويفد إليها طُلابُ الأربطة والمدارس والمساجد وكذلك عَوامّ الأمة للاستفادة خلال بعض أيام الأسبوع مما يُقرأ ويُقرّر فيها .

الأساسية بما يتلاءم مع الزمان والمكان .

التَّرْبِيَةُ غَيرُ التَّعْلِيمِ . . والتَّعْلِيمُ فَرْعُ التَّرْبِيَة . .

إذا كان التطور العلمي والحضاري وحاجة الإنسان المعاصر قد فرض علينا مواكبة العجلة العلمية والسير في طريق الأخذ بالعلوم المعاصرة كمادةٍ أساسيةٍ من مواد التعليم في المدرسة والجامعة، ومن ثمَّ الاستفادة من منهج السلف وتقديم نماذجه وشخوصه الموجودين حالياً كمُدَرِّسين للمادة العلمية في هذه المواقع التعليمية؛ ليتمَّ المَزْجُ بين القديم والحديث في دائرةٍ واحدةٍ تُفَوِّجُ لنا جيلاً أكثرَ تماسكاً وواقعيةً ؛ إذا كان الأمر كذلك فإنَّ الواقعية أيضاً تقتضي منّا أن ننظر إلى الأزمة التي مرتْ بواقعنا العلمي والعملي، وما آلتْ إليه العقليةُ المسلمةُ من داخل هذه الأطر التعليمية ذات النمط الهيكلي الغربي، فالذين يخجلون من شمول الجهالات في العقل الإعلامي المركب اليوم عليهم أيضا أن يتذكروا الخجل من شمول الضلالات في القلب الإسلامي المفرغ عن أبسط مقومات الأدب الشرعي داخل المؤسسات الإعلامية تربويةً وتعليميةً وثقافيةً وغيرها .

فإشكالنا غير منحصر في المسألة التعليمية الثقافية مع كونها مهمةً جداً، بل إن الإشكال الحق قائمٌ في المسألة

الأخلاقية التربوية، وبسبب هذا الإشكال تحولت المؤسسات التعليمية في مناطق عديدة من العالم إلى متاريسَ وثكَنَاتٍ شبهِ عسكريةٍ لا تعرف من الأخلاق الواجبة شرعاً غير الأخلاق المكسبة للمال والجاه والمطمح .

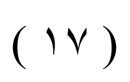
وسبب هذا فقدان ((العامل التربوي الصحيح)) ، والعامل التربوي الصحيح لا يتأتى بالتصنيع والتشميع ، وإنما يتأتى بوضع أهله في مواقعهم المناسبة.

ولم تكن المدارس باختلاف مناهجها جديرةً بالدور التربوي الأخلاقي ، وانعدامه منها لم يكن صدفةً وإنما كان من أهدافها الأساسية عند تكوينها في أمة الأخلاق والتربية طمسُ المعالم التربوية الأخلاقية من المنهج كلِّه ؛ لتصبح مسألةً عائليةً أو تقليداً شخصياً بفردٍ أو جماعةٍ .

وإذا ما بلغ الحماس في مرحلةٍ معينةٍ بعددٍ من الحريصين على المادة التعليمية دينيةً ودنيويةً مبلغاً يدفع بهم إلى بذل الغالي والرخيص في سبيل تشييد الصروح التعليمية للنفع والانتفاع ولنشل الواقع من الإعلامية الرخيصة والجهل المركب ؛ فإن هذا كله لايعني انتهاء دور المواقع التربوية المتوارثة، ولا يعني أيضا فشلَها في معالجة الواقع، بل إنه يجب على الحريصين دائماً أن يُقوِّموا منطلقاتِ الحرص ويتفقدوا مكامنَ الحماس ومصادره ، حيث إن تسليط الأضواء في وقتٍ ما على كيفيةٍ معينةٍ ومدرسةٍ معينةٍ جَذْبٌ لعقول الناس عن مواقعَ أخرى ، سواءٌ كان هذا المشارُ إليه صدفةً أم مبرمجاً .

ولا نعتقد أن في البدائل المستحدثة إجابةً على ما يحتاجه الناس في هذه الواقع المكدود، حتى إننا لو صمتنا عن مثل هذه التصرفات لربحنا بديلاً مناسباً عن الأربطة والزوايا العلمية، وإذا أجاب علينا دعاة التحديث بنعم وقالوا : إن بدائلنا جديرةٌ بالأمر وقائمةٌ به، وليس الواقع في حاجةٍ لما تتحدثون عنه ، والمدرسة الحديثة في هياكلها التعليمية ستؤدي دور التربية ودور التعليم في آنٍ واحدٍ، وخاصةً أن اختيار المدرِّس أو المعلم سيكون بعنايةٍ ودراسةٍ ؛ قلنا لهم : إن هذا التَّقَوُّل من نمط المستحيل عقلاً وعِلماً، فإنما الحكم للموطن .

والمدرس المُنتَقى إنما يدرس مادةً ذاتَ بُعْدٍ منهجيٍّ معينٍ ووقتٍ معينٍ، ويتلقفه في أروقة المدرسة وجوهٌ متعددةٌ ومتقلِّبةٌ ومتنوعةٌ، وخاصةً في زمن صراع التيارات والأفكار والأحزاب والجماعات والمؤسسات، وقد ثبت بالتجربة أثرُ هذه الدعوات على المنزل ولو كان صاحبه من رجال الحرص على التربية والدين ، بعد أن تضافرت كل الوسائل المتفرقة على أداء دور الهدم والتعتيم والتحطيم كهدفٍ موحَّدٍ ، فما بالك في مدرسة أو جامعة تحوي أقوى عناصر التيارات وأشد الراغبين في لَيِّ العقول إلى التنظيرات من حيث يعلم الأحفاد ومن حيث لا يعلمون ؟



لا بد أن تتبلور فكرة الإنشاء للأربطة الدينية في عقول المهتمين بالإسلام تبلوراً سليماً ومناسباً كي يفهموا القصد ويدركوا العلة ، فالأربطة أحدُ أشكال التربوية التعليمية التقليدية في مدرستنا بحضرموت والعالم ، ويتفرع منها كلٌّ مسمىً آخر ، سواء كان بلفظ ((مدرسة)) أو ((معهد)) أو ((دار)) أو غير ذلك، باعتبار الفرع مستمد من الأصل علماً وتعليماً .

وللرباط اهتماماتٌ في الحياة الاجتماعية غيرُ منقطعةٍ أبداً خلافاً للمدرسة والجامعة والمعهد، فالمدرسة والمعهد والجامعة ينتهي الاتصال فيها بالطالب مع تخرجه بشهادته،وأما الرباط فموقع دعوةٍ وذكرٍ واجتماعِ قلوبٍ على طريقٍ روحيٍّ مستمرٍ ، وقد أَيَّدَتِ التجربةُ المحدودةُ التي بدأ القيام بها قريباً في بعض مناطق اليمن هذا الاتجاه ، حيث بقيت الأربطة تقيم الدورات التربوية التعليمية لكافة شرائح المجتمع ، إضافةً إلى احتضانها في حلقاتِها المستمرة أنماطاً من الناس تلتقي مستوياتهم عند الأمر والنهي الشرعي في كلِّ علمٍ يستمعون إليه ويستفيدونه، هذا إلى جانب التَّعَلُّم المتَّخذِ شكلَ المنهجيةِ المنظمة في العام الدراسي الواحد للمنتظمين، ويزيد على

هذا كونُ الأربطة قادرةً على إقامة دروسٍ إضافيةٍ لتقوية المستويات العلمية في بعض المواد التعليمية المتلقاة في المدارس .

ومن هذه الأربطة يخرج أفواج الشباب المشتغلين بالدعوة إلى الله يملؤون المساجد علماً وأدباً وحكمةً ، وعليهم سِمَةُ العلم الذي أخذوه من المشايخ إضافةً إلى أثر الملبس الخاص بهم وما يتركه هذا الشعار من معانٍ وآثارٍ في النفوس .

ومتى كانت حاجتنا إلى النمط التعليمي الهيكلي قد برزت فإن العديد من خريجي هذه الأربطة يقدرون على أخذ نظريات العلم والازدياد من الاطلاع على المنهجيات والدراسات الفقهية والحديثة في رواقات الجامعة، مع التزامهم أدب السلوك الذي أخذوه من الأربطة وتحلَّوا به من مجالس الشيوخ.

ثم إن وجهتنا التربوية في حضرموت والعالم غير منطوية تحت مسميات الحداثة، بل ربما كانت الحداثة سبباً من أسباب طَمْسِها ، والمقصود بالحداثة إدراجُ المنهج التربويِّ التعليميِّ المتوارثِ في أشكالِ الهياكلِ التعليميةِ الحديثةِ ، فإذا كان المتأخرون قد اقتنعوا تماماً بفشل الأسلوب التربويِّ التعليميِّ المتوارثِ فتلك مصيبةٌ، وإن كانوا قد استحسنوا التحديثَ رغبةً في الحصول على المزايا الشكليةِ التي يحصل عليها متخرجو المعاهد

والكليات فتلك الأخرى .

وإن كانوا يَوَدُّون الجمعَ بين الحالتين فإنَّ للجمعِ شروطٌ ، وللقَصْرِ شرُوطٌ، فالصلاة كلُّها صلاة؛ لكنَّ الجمع للبعض دون البعض، والقصر للبعض دون البعض، وفي هذا إشارةٌ واعيةٌ لمن ألقى السمعَ وهو شهيد ، وعلى كل حال فإننا نرى من واقع الحاجة الملِحَّة في هذه المرحلة أن يترافق الاعتناءُ من المخلصين بالتربية والتعليم ، وأن لا يخلط الأمر ، فللتربية مواقعُ ورجالٌ ، ومنها:

- الأربطة الدينية ودُور العلم
- الزوايا وحلقات الشيوخ
- المدارس التقليدية

وهذه كلها تمثل الأرضية المناسبة للمراحل العليا ، ولم يبق في هذه المرحلة سوى التنسيق بين هذه المواطن التقليدية وبين المدرسة الحديثة .

وأكبرُ ما يواجه الأنماط التقليدية اليوم من المشاكل قلة الرجال المُرَبّينَ الحاذقين القادرين على تسيير المنهجية المتوارثة مع قَبول التجديد في بعض الأنماط الإداريةِ والمنهجيةِ ولو بشكلٍ محدودٍ، وإذا ما أذن اللّه لهذه العقدة فزالت وتهيأ للأربطة وضعُ قواعدِ المنهج التربوي والتعليمي بشكله المتوارث مع شيءٍ من التجديد في ترتيب وقت التلقي ، وتحديد كمية طلاب الحلقات، وإرضاخ الطلاب لبعض الاختبارات التحريرية والشفوية ، وتحديد الزمن النهائي لطالب الرباط ، وتحديد المستوى الذي يبلغ إليه في طلب العلم، ثم منح الإجازة الشرعية مع الشهادة في العلوم التي تلقاها ؛ فإن شمسَ الإشراق للتربية والتعليم ستَطُلُّ بنورها القشيب على عالمنا المكدود، وبحُلَّةٍ من الجمال والجلال .

أكثرُ ما يتحدثُ به المعارضونَ سَيرَ الأربطةِ ما سبق أنْ أَشَرنا إلى بعضه من عدم ترتيب وقت التلقي ، وعدم تحديد كمية الطلبة في الحلقة الواحدة، وعدم إرضاخ الطلاب لاختبارات دورية ونهائية ، إضافة إلى عدم تحديد المدة الزمنية في الرباط ، وعدم تحديد المستوى الذي يتخرج به الطالب ، وانعدام الشهادات لطلاب الأربطة ، وانعدام المنهج الشامل .

وأمام هذه التعديلات يرى العديد من المربين المتخذين أسلوب السلف الصالح في الأربطة أن إدخال أي تحديث من أي نوع من هذه الأنواع مؤثر على مطلب السلف ومنهجهم، ولربما عُدَّ مخالفةً لهم وأذىً لأجدادهم، وتوقف على هذا الاختلاف رأيُ الجانبين ، وكلهم في الغالب ينتمون لمدرسة السلف الصالح ويختلفون في أسلوب المعالجة .

ومن واقع تجربتنا في الوطن أحببنا أن نعرض لإخواننا وآبائنا المشرفين على الأربطة التقليدية فكرتَنا المتواضعة لتسهم في فك العقدة بين الجانبين ولو إلى وضع معين، فحيثما وُجِدَ المُرَبُّون الراغبون في

المحافظة على النمط التقليدي المتوارث في الأربطة فلا حاجة للمنازعة والاختلاف، بل يكفي أن نمنحهم الشكر على تلك المحافظة ونستأذنهم في إطلاق التجربة في مواطن أخرى، فهناك في اليمن تُفتح العديدُ من الأربطة كرافدٍ جديدٍ من روافد الاهتمام بالتربية الروحية المحاذية للتعليم، وهذه الأربطة ودورها التربوي التعليمي القائم قد تأكد بالتجربة العَمَلية أنه يُسهم إلى حدٍّ كبيرٍ في تبصير الطلاب بدورهم المطلوب .

فالأربطة الحديثة ستكون بالطبع على نمطٍ يتلائمُ مع استيعاب بعض نقاط التحديث الملائمة، لكونها استجابةً للحاجة القائمة للجمع بين طرفي التربية والتعليم بما يتلائم مع الواقع، وملائمتنا للواقع إنما تعني معالجته ومساعدة أشكاله على الارتقاء من هُوَّةِ الحضيضِ التعليميِّ الممزَّقِ إلى مستوى التربية والتعليم الممنهج الواعي قدْر الإمكان ، فكلُّ رباطٍ دينيٍّ يتبعُه معهدٌ تعليميٌّ ، ووظيفتُها استيعاب تلاميذ المدرسة الحديثة للجمع بين التلقي لأدب الإسلام والتربية الروحية في الرباط وبين دراسة العلم بكافة نماذجه المقررة في المعهد(٢) .

---

(٢) نجحت هذه الفكرة في رباط البيضاء وأدت ثمارها النافعة .

ومن مهمات الرباط أيضا فتح الحلقات العلمية في المساجد لنشر الدعوة إلى اللّه، وفتح دروس التقوية للمواد التعليمية المتلقاة في المدارس وخصوصاً في مادتي التربية الدينية واللغة العربية، وفي الأربطة الحديثة يتلقى الطالب شهادةً وإجازةً في العلوم التي تلقاها سواءً كانت دوراتٍ تدريبيةً أو كانت دراسةً منهجيةً ، وعندما تنضج التجربة ويعلم الجميع أن الأربطة رافدٌ هامٌّ من روافدِ صناعة الإنسان وبنائه لن يكون هناك تردُّدٌ من الاستفادة المطلقة من هذه المواقع النافعة .

إننا أمام مرحلةٍ هامةٍ ودقيقةٍ خاصةً لمن كان منّا ينتمي لمدرسة السلف الصالح بحضرموت، وإذا لم تُؤخذ معالجات المرحلة في الواقع المضطرب بمسؤوليةٍ وحكمةٍ فإن آثار التصوُّف النفسيِّ المبنيِّ على التحدي والاندفاع والاعتداد بالنفس لن يصنع لنا شيئاً جديداً تستثمره الأجيال أكثر من استفادة الأضداد المبتهجين بتوسيع شُقَّة الخلاف بين نقيضي المدرسة الواحدة.

هذه ملاحظةٌ نُوجهها إلى مُشْرِفي الأربطةِ الدينيةِ بالعموم ، وملخَّصُها يقضي بأن نَفْهَمَ مرحلَتَنا فهماً صحيحاً ، ولنُعالجِ المسألةَ التربويةَ بما يقتضيه الحال .

فالملاحظ أن عددا من أبناء مدرستنا قد اقتنعوا تماماً بإشادة صروح العلم الحديث والإنفاق عليها وتدبير كافة مهماتها الإدارية والتعليمية والمالية، وبالمقابل أعرضوا تماماً عن تغطية حاجة الأربطة واعتذروا بلطف عن مساعدة هذه الصروح العلمية التربوية ، واستجابت دواعي العصر من القمة الفكرية المعاصرة المتبنِّيَةِ إدارةَ المدرسة الحديثة حتى شباب الثانويات والمعاهد إلى قَبول فكرة التحديث وإدخال الدراسات العصرية إلى جانب مواقع التربية والتعليم التقليدي .

وتعيش الأربطة بصورتها الحالية وضعاً اقتصادياً صعباً، ولا يجد العديد منها ما يغطي أهم محتاجات سير الحلقات وتغذية طلاب الأقسام الداخلية، وهنا يعني أنها لابد أن تستمر في وضعها الحالي دون أن تقف عن العطاء والإفادة إن أراد مشرفوها الوفاء لمدرسة السلف الصالح في أصعب الظروف.

ومن أصعب الظروف أيضا ما نلحظه من عدم التنسيق بين هذه الصروح التربوية، وهي اليوم في أمسِّ الحاجة لهذا التنسيق ولو على المستوى الاستشاري، فمن تبادل الآراء المشتركة والاستشارات المستمرة لابد من بروزِ فكرةٍ موحدةٍ يَتِمُّ بها حمايةُ الأربطة من مزاحمةِ المدرسة الحديثة، هذه المزاحمة التي لا تقف كما يبدو عند إيقاف أو تحديد الإنفاق والعطاء، بل تتعداه إلى سحب عناصر التأثير بالأسلوب التربوي التعليمي القديم هيكلاً ومنهجاً ، ليصُبَّ في قالب التحديث خارج الأربطة ذاتها ، وإننا نهيب بإخواننا الحريصين على استمرار دور التربية الأبوية في حضرموت وخارجها أن يوحدوا جهودهم في سبيل استمرار الدور الأبوي المبارك المتمثل في أربطة حضرموت واليمن بما يلي :

(١) لقاءاتٌ استشاريةٌ تجمع مشرفي الأربطة .

(٢) وضع مقترحاتٍ للمناقشة حول مسألة المنهجية وتوابعها ، وتحديد الشكل التربوي والتعليمي والإشرافي بطريقةٍ مناسبةٍ للواقع التربوي والتعليمي دون إضعاف الدَّور المتوارث .

(٣) وضعُ خطةٍ مفصلةٍ لكل رباطٍ لترتيب مسألة التغطية الإنفاقية على نشاطات العمل التربوي والتعليمي والدعوي .

إننا نرى بيقينٍ أنَّ وَضْعَ الأربطةِ الحاليَّ يحتاجُ إلى نَقلةٍ نوعيةٍ تتلائم مع الزمن المزاحم لها، فالنَّقلَةُ النوعيةُ قد تنجح في رباطٍ معينٍ دون غيره لوجود بعض الشروط أو كلّها على الصفة المرادة .

ولكنَّ العملَ المشتركَ سيجعلُ من الأربطة واجهةً متماسكةً وصرحاً تربوياً علمياً سامقاً، تذعن لأمره كافَّةُ القوى المعارضة ، ويبارك السلف هِمَّةَ الخَلَف إذا قامت على إحياء مآثرهم بصفةٍ لا تنقلُ الشكل ولا المضمون بل تحافظ عليهما وتضيف ما يتلائم مع الواقع والزمن والحاجة الملحة .

هذا آخر ما اجتمع لنا حول هذه المسألة ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الفِهْرِس